موكب الأطياف

بقلم روبير مرغريت

لماذا تكتب الروايات* ؟ هذا سؤال يبدو ان كل روائي يستطيع ان يجيب عليه بسهولة ووضوح. والواقع اننا لا نكاد نفهم ان يخصص انسان ذو ذكاء متوسط على الاقل خير ما في حياته وما في طاقته ليعمل عملاً دون ان يعرف لماذا يعمله.

اما فيما يتعلق بي، فقد قضيت زهاء اثني عشر عاماً لأكتشف ذلك. فان الجواب لم يأتني دفعة واحدة، وإنما خرج ببطء شديد من ممارسة الفن. فلكثرة ما كتبت الروايات، فهمت شيئاً فشيئاً، وانا اكتبها، لماذا كنت اكتبها.

ولقد ادركت، بعد سنوات عديدة من ممارسة المهنة، انني انما اكتب لأخلق اشخاصاً. وهذا كل شيء. واقصد بـ «خلق الأشخاص» اكتشاف كائنات، والاقتراب منها رويداً رويداً، وتمثلها والعيش في اخفى صميميتها، وعقد علاقات معها لا تستطيع ان تحدها حدود الكتاب الذي تأخذ فيه مكانها.

إن الكتابة وسيلة والرواية ذريعة. وليس الكتاب إلا نتاجاً ثانوياً، اذ لا اهمية له بذاته، وليست له جبرية خاصة به، وعناصره غير قابلة التبديل؛ فهو انما يصدر عن التأليف والاسلوب والفن والمهنة. اما الذي له وحده اهمية والذي هو وحده موجود، فانما هم الأشخاص.

والحق انهم هم الذين يجبروننا على الكتابة. فان نهمنا واحلامنا ورغبتنا وصداقتنا وحبنا — وبغضنا ايضاً بالطبع — تتطلب كائنات مختارة. والحياة — ما ندعوه الحياة — لا تقدمهم لنا، او لا تعطينا اياهم إلا بصورة غير كاملة وإلا على انهم ناقصون، يكادون لا يلمسون. وهي تمنعنا من ان نتملكهم لأننا لا نتملك ابداً كائناً او شيئاً واقعيين. اما امكانية العيش معهم، وبهم، عيشاً عميقاً، فانما يتيحها لنا التخيل وحده.

وما اشد سذاجة العقول التي تستطيع ان تعتقد ان الرواية تكتب لتروي، أو لتهجو أو لتعرض قضية ... فلا يكتب الكاتب إلا ليعبر عن حبه أو بغضه، أو عن حبه وبغضه. وايا كان الأشخاص الذين نصورهم واية كانت الأشياء التي نرسمها، فنحن لا نصور ولا نرسم إلا وجوه اهوائنا. ويخيل الى بعضهم انهم يحملون شهادة أو يؤدون رسالة. والحق ان على هذه الأرض نفوساً كبيرة، فلنغبطها ولكن لا ننخدع ولا نغتر. فلسنا اخلاقيين كما كان يعتقد بلزاك، ولسنا انبياء. ولن يخالفني اي روائي إذا قلت: إن الرواية هي الثمرة الانانية لنهم لا يستطيع الواقع ان يرضيه. فان هناك مسافة غير قابلة للتقصير، كما يقول شاردون بحق في كتابه «ذوي النزعة الروائية»، مردها إما الى عجز عن الحياة، وإما الى يقين صميمي بان الواقع لا يمتلك. وان هذه المسافة تتيح لنا حظاً واحداً هو ان نتجاوز هذا الواقع ونخلقه من جديد.

وليس في ذلك أي فرار. إنما نحن نبتعد عن الاشخاص الواقعيين لاننا نبالغ في حبهم. اننا نتركهم لنمتلكهم خيراً مما كنا نمتلكهم، ونأخذهم، نأخذ منهم ما تحتاج اليه كيمياؤنا. إن الاشخاص الروائيين ليسوا مخترعين، وإنما هم معطون، وانتم الذين تعطوننا إياهم. ونحن نعيدهم لكم لتحبوهم كما نحبكم.

إن وجهاً يلمح بين ظهرانيكم يصبح ذلك الوجه الذي يسكن نفوسنا طوال أشهر وسنوات. أو هو خط، أو كلمة، أو ضحكة، أو مزاج نحس به فجأة فتتسلسل حوله جميع احلامنا، او لعلها يدان أعجبنا بهما، فاذا هما تنضمان إلى ذلك العنق الجميل، أو إلى قامة تلك المرأة، او الى الجمال الفريد الذي رشح من حركة قامت بها امرأة رابعة، فاذا هو مخلوق يتكون في نفوسنا، ليس هو إحدى هاتيك النساء، ومع ذلك فانه هي كلها — وأخريات في الوقت نفسه. هكذا كان شأن تينك العينين اللتين رأيتهما ذات أصيل مشمس في الشارع، فأصبحتا بهذه الطريقة عيني امرأة وهمية ظللت مغرماً بها حتى بعد ان انتهت الرواية التي نسجتها حولها، ونشرت، ونسيت بتفاصيلها، منذ وقت بعيد.

إن للشخص الروائي جبريته الخاصة، بعكس كتاب اتخذ شكلاً معيناً، وكان من الممكن أن يتخذ شكلاً غيره. فهو

— البقية على الصفحة ٧٤ —

(*) راجع العدد ١٣٤٠ من مجلة Les Nouvelles Littéraires الفرنسية، وقد نقلناه الى العربية ببعض الاختصار.

المشاكل الفكرية الدقيقة في المجتمع العربي . فقضية نقل الثقافة الغربية هي اليوم قضية أساسية بالنسبة للفكر العربي ، كما عبر عن ذلك كل من الدكتور شارل مالك والاستاذ سلامه موسى ، وإن ضرورة التطور والخلاص من ضحالة الوضع العقلي في البلاد العربية لتجعل الحاجة الى هذا النقل بالغة الخطورة . ولعل دور النشر قد لمست كيف ان هذه الحاجة أخذت تتبلور عند القارىء العربي في إقباله المتزايد على الكتب المترجمة . على ان طرح هذا الاستفتاء ، وهو أقصى ما يسع مجلة « الآداب » صنعه من هذه الناحية ، جدير باثارة بحث مستفيض ودراسة منظمة، تضطلع بها هيئات رسمية تتوفر على الانصراف الى الموضوع بشكل جدي ، في مقابل تزودها بالامكانيات الواسعة اللازمة للتنفيذ. أضف الى هذا ان الاستفتاء العابر لا يفي بالغرض كما أشار الدكتور مالك في رده ، فقد تأتي الاجابات رجعاً للمزاج الشخصي عند اصحابها ، وليس هذا المزاج بالمحك الصالح الدقيق للحاجة الحقيقية . واعتقد ان واضعي الاستفتاء قد ادركوا هذه الناحية من خطورته وسعة مجاله ، فحددوه بعنصر الاعجاب الشخصي .

ولا بد لي هنا من التنويه باقتراح الدكتور شكري فيصل الذي علق على العدد الرابع ، حين تمنى على إدارة المجلة نشر موضوعات علمية مبسطة ، فأشاطره الاقتراح مع إضافة مادة الفلسفة الى محتواه ، إذ ليس في ذلك ما يضير طابع المجلة او موقف قارئها منها ، لا سيما وان هذه المواد ، والفلسفة منها بنوع خاص ، تدخل ضمن إطار الأدب بمفهومه الواسع . والمطلوب في الواقع ليس عرض الأبحاث المطولة والعويصة ، فغاية الصحافة الأدبية كما أراها ، هي « التشويق » الى القراءة والبحث الجدي اكثر مما هي البحث بالذات .

وأقف عند هذا الحد ولا أطيل ، إذ اخشى موجة السأم ، في حين ان مواد العدد في غزارتها وأهميتها تستأهل الدرس المستفيض ، وتستدرج القلم في غير رأفة بوقت القارىء ، مما يفرض تقديم الثناء والتهنئة الى من أشرفوا على إعداده وجعله زاداً ثميناً .

محمد وهبي

الخلق والوعي الفني

(التتمة من الصفحة ٨)

فنان . وليست حاجة النشر هي الحاجة في ان يرد للآخر ما يخصه، ما اوحى به، ما فعله هو نفسه. وانما النشر انجاز وجود الأثر بالوسيلة الوحيدة المعقولة: ادخاله في الملك المشترك للوعي والحياة.

إن غوغول لم يقتل «الارواح الميتة» حين احرق مخطوطته، وإن رائعة فرنهوفر تنعدم وجوداً ، ما ان تلتقي بها انظار الشهود ، بالرغم من جميع الالوان المتراكمة على اللوحة . وفي كل مرة يكشف فيها الخالق عن اثره، يحاول ان يلتقي بالمتفرج المتوهم الذي ينتظر منه هذا الأثر وجوده الكامل . ولكن الأثر لا يطلب من هذا المتفرج نظراً فقط، وانما يطلب منه تكريساً . فالأثر الفني لا يوجد إلا حين يعتبر اثراً فنياً، إلا حين يعتبر خليقاً بان يمثل في « نظام » ما . فالوجود بالنسبة الى الأثر لا يقبل الفصل عن القيمة .

غايتان بيكون

موكب الاطياف

(التتمة من الصفحة ٢٤)

منذ ان يتجسد في أحلام الروائي موجودٌ مع مايسميه برغسون معطيات شخصيته المباشرة. وسرعان ما تتجمد هذه المعطيات؛ والمؤلف وشأنه إن هو أخطأ في طبيعتها الدقيقة الصحيحة : إنه ليضاعف محاولاته ، ولا يُنهي رواية هذا الشخص . فبالامكان اجادة رسم ذاتٍ معينة بهدوء، اقصد اكتشاف فوارق بل حتى مناقضات فيها رويداً رويداً ، في أثناء الكتابة . وقد ينخدع روائي بما يمكن لشخص من أشخاصه أن يفعل، ولكنه لا يمكن ان ينخدع بما هو حقاً .

ذلك هو اليقين الوحيد الذي يتمتع به الروائي : حقيقة مخلوق ، وانه ليهزأ هزؤاً كبيراً بما يقول النقاد عنه إنه الوحيد الذي يستطيع أن يقيس اتفاق مخلوقه مع ذاته (أي ذات المخلوق) . أما كتبه ، فانه لا يعرف عنها شيئاً . سعداء هم الكتّاب البسطاء الذين يظنون ان آثارهم التي يكتبونها أو التي فرغوا منها هي جيدة أو لا بأس بها . وحتى مورياك ، وهو من هو مجداً روائياً ، إذا سئل رأيه في رواياته فأحسب انه غير راض عنها ، مثلنا تماماً . ولكنه سيعترف دون ريب ، مثلنا تماماً ، أنه يحب اشخاصه ، وأنه لا ينساهم ، وانهم يمتون اليه باوثق الصلات وأدقها .

لا ، ان حدود كتاب ما لا تسجن اشخاص الرواية. فهم، بعد ان ينتهي ويُنسى، يخرجون منه موكباً من الاطياف؛ ويظلون عائشين فينا ، كما يظلون في ذاكرة القاريء اذا عرفنا ان نكسبهم الحياة التي ينعمون بها في نفوسنا .